الواقعية والمثالية في السياسة الأمريكية

2006/06/27

كانت عملية صنع سياسة أمريكا الخارجية ولا تزال ساحة مفتوحة للصراع بين تيارين فكرين رئيسيين: يدعو أحدهما إلى الواقعية السياسية، ويدعو الثاني إلى المثالية. وينطلق أصحاب الرأي الأول من قناعة تقول بان على السياسة الخارجية أن تعمل على حماية مصالح أمريكا الوطنية وتعزيزها نفوذ الدولة على الساحة الدولية، وذلك بغض النظر عن أية اعتبارات أخرى. وتقوم هذه القناعة على افتراضات أساسية تقول بان الدولة بوجه عام تعيش في غابة تتصارع فيها الكثير من الدول، حيث تحاول كل منها حماية مصالحها ومد نفوذها على حساب الدول الأخرى. وهذا يجعل من الطبيعي، بل من الضروري قيام كل دولة بحشد ما استطاعت من أسباب القوة للدفاع عن وجودها وحماية مصالحها الوطنية وتعزيز مواقعها الدولية. وهذا يستوجب بدوره بناء القوة الذاتية وإقامة التحالفات مع الغير من الدول، وذلك من أجل تحقيق الأهداف الوطنية دون غيرها من أهداف.

إلى جانب ذلك، يقول دعاة الواقعية في العلاقات الدولية أن على الدولة عدم التدخل في شؤون الغير من الدول إلا عندما يكون التدخل ضروريا لحماية المصالح الوطنية وتعزيز قدرات أمريكا القتالية. وهذا يعني أن على أمريكا أن لا تقيم أية صداقات مع أي من الدول، وأن لا تعير المثاليات والاعتبارات الإنسانية أي قدر من الأهمية لان ذلك سيؤدي إلى تورطها في قضايا داخلية تثقل كاهلها ولا تعود عليها بالفائدة، وقد تتعارض في الواقع مع هدف حماية المصالح الوطنية وتسخير العلاقات والتحالفات الدولية لزيادة قدرات أمريكا التنافسية.

ومن هذا المنطلق جاءت الأصوات الضعيفة التي قامت بتوجيه النقد للعلاقة الأمريكية-الإسرائيلية، لأنه ليس لأمريكا، من وجهة نظر هؤلاء، أية مصلحة حقيقية في إقامة مثل تلك العلاقة ودفع بلايين الدولارات سنويا من أجل الحفاظ عليها وتعزيزها. ويضيف هؤلاء أن علاقة الصداقة مع إسرائيل تسببت بإلحاق الكثير من الأضرار بسمعة أمريكا ومصالحها في الماضي، خاصة في البلاد العربية والإسلامية، وأنها تساهم اليوم في زيادة حدة الإرهاب، وتجعل من الصعب على أمريكا تحقيق النصر في حربها على الإرهاب الدولي. وهذا يعني أن دعاوى غالبية المنادين بضرورة إعادة صياغة السياسة الأمريكية تجاه إسرائيل لا تنطلق من إحساس بضرورة التعاطف مع الشعب الفلسطيني، بل من قناعة بأن تلك العلاقة في حالتها الراهنة تتعارض مع المصلحة الوطنية الأمريكية. لكن هذا لا ينكر ولا يجب أن ينكر وجود أصوات أمريكية أخرى نادت ولا تزال تنادي بوجوب التعاطف مع الشعب الفلسطيني والاعتراف بحقوقه المشروعة وتحقيق السلام في الشرق الأوسط على أساس الشرعية الدولية وقرارات هيئة الأمم المتحدة.

أما دعاة المثالية في العلاقات الدولية فيقولون إن على صناع السياسة الخارجية أن يأخذوا في الاعتبار المتغيرات الدولية وآثارها على مصالح الدولة ومكانتها العالمية، وأن يعملوا على خلق الظروف الملائمة لتحقيق المصالح الوطنية على المدى البعيد. وهذا يعني من وجهة نظر هؤلاء أن على أمريكا أن تعمل على تغيير الواقع الدولي في الوقت الراهن ليكون أكثر ملائمة لتحقيق الأهداف الأمريكية في المستقبل، وأن عدم الاهتمام بتغيير الظروف في الأوقات المتاحة وتعديل مواقف الدول المنافسة سيجعل إمكانيات حماية المصالح الوطنية وتعزيز المواقع الأمريكية على الساحة الدولية أكثر صعوبة في المدى البعيد. كما يضيف هؤلاء أن هناك قضايا إنسانية تستحق العناية والاهتمام، ومنها النزاعات الداخلية والصراعات العرقية التي تلحق الظلم بالأبرياء، مما يستوجب على أمريكا كدولة عظمى وحيدة في العالم أن تقوم بدور قيادي في حل تلك المشاكل الدولية وتقديم العون للمحتاجين والحماية للأبرياء. ومن هذا المنطلق جاء الغزو الأمريكي للعراق بالرغم من عدم تهديها للمصالح الأمريكية، والدعوة لنشر الديمقراطية في المنطقة العربية، وتصاعد الضغوط على روسيا والصين وغيرها من الدول لتعديل مواقفها وسياساتها الاقتصادية والأمنية.

إن أتباع كلا المدرستين الواقعية والمثالية يتواجدون داخل الحزبين الجمهوري والديمقراطي على السواء، حيث يعملون من خلال مواقعهم الأكاديمية والبحثية والرسمية على التأثير في تشكيل عناصر السياسة الخارجية وتوجيهها الوجهة التي تتفق مع آرائهم وتعكس قناعاتهم. ولذا وقف الواقعيون في كلا الحزبين ضد شن الحرب على العراق، لان ممارسات النظام العراقي– كما قالوا – لم تشكل في حينه خطرا يهدد المصالح الوطنية الأمريكية، مما جعل الحرب مغامرة مكلفة وغير ضرورية ولا تخدم

المصالح الأمريكية. أما طبيعة نظام الحكم الدكتاتورية وممارساته غير الإنسانية فكانوا يعتبرونها قضية عراقية لا تعنيهم بشيء طالما بقي العراق بعيدا عن تهديد الأمن القومي لأمريكا. وانسجاما مع هذه القناعة وقف هؤلاء أيضا ضد مشروع نشر الديمقراطية في الشرق الأوسط لان نشر الديمقراطية في رأيهم يساهم في إيصال القوى الدينية المتطرفة إلى الحكم والتي تعتبر بطبيعتها معادية للثقافة والمصالح الأمريكية.

في المقابل، يقول المثاليون إن الديمقراطية قضية حيوية بالنسبة للعرب والغرب على حد سواء، حتى لو مهدت لوصول التيار الديني إلى الحكم لأنه سيكون على ذلك التيار أن يتعايش مع العصر وان يتعامل مع القضايا السياسية بواقعية، مما ستفرض عليه التوجه نحو الاعتدال. إلى جانب ذلك، يقول المثاليون أن النظم الديمقراطية لا تحارب بعضها بعضا، وأن نشر الديمقراطية في البلاد العربية والإسلامية وغيرها من الدول سيساهم في تخفيف حدة الإرهاب في المدى القصير، وسيبعد شبح الحرب عن العالم في المدى الطويل. لكن، وبالرغم من وضوح هذه الأفكار والمواقف، فإن كل رؤساء أمريكا ومنذ نهاية الحرب العالمية الأولى قاموا بالخلط بين الفلسفتين وتبني سياسات خارجية تقوم على الواقعية المثالية في آن واحد. وليس أدل على ذلك من حماس بوش ومن قبله كلينتون للتدخل في شؤون الغير من الدول، والترويج للديمقراطية، والضغط على الدول المنافسة، والتوجه نحو السيطرة على مصادر البترول، والانحياز التام لإسرائيل، مما جعل الاختلاف ينحصر في حدة الموقف وليس في طبيعته أو مكوناته الأساسية.